الدكتور صروف معلماً

انا لا أطمع ان ابارِي ولا انْ اقارب ما كتبهُ الافاضل في سيرة استاذي وخلقه ومكانته لغويًّا وادبياً. ولكني احد تلاميذه، وقد عرفتهُ في صباي معلّماً في برج صافيتا وعرفتهُ في فجر شبابي استاذاً ومعلماً في الكلية الاميركانية ببيروت ثم في المقتطف في تلك الكلية واخيراً عرفتهُ في مصر في المقتطف استاذاً معلماً ثم دكتوراً معلماً. فما زلت اذن منذ صيف سنة ١٨٦٩ الى ان توفاهُ الله تلميذاً محبًّا لهذا الاستاذ الخالد ما خلد علمهُ وادبهُ وفضله

وهيهات انْ تمحى خلودهُ الاّ باعلاء عمرانا الاجتماعي عن آخره بمحاقٍ تماوية تمحو الانسان واثر الانسان عن هذه الكرة الارضية التي وُلد ودرج وترعرع وشبّ فيها العقل البشريّ حتى وصل الى الدرجة التي وصل اليها باحد ابنائها الشرقيين المرحوم الدكتور يعقوب صرّوف

كان احلى من شهد النحل في فمي ان اخاطبهُ شفاهاً وعلى صفحات المقتطف يا استاذي العزيز. وانا اطمع انْ يُقبّل ادّعائي الآن اني كنت احبّ تلامذتهِ لهُ — ولا اجسر ان اقول اليه — بظاهر رياءٍ او حجتي الآتية وهي: انهُ كان احبّ معلميّ اليّ في برج صافيتا ولم اكن قد تممتُ الحادية عشرة من عمري. ثم كان معلمي في الكلية الاميركانية ثم معلمي في المقتطف في الكلية وفي مصر كما اشرتُ سابقاً. ولا اظنُّ انّ تلميذاً آخر غيري عرفهُ معلماً لهُ في الاحوال الثلاثة التي عرفتهُ بها وفي جميعها كان عندي هو هو، المعلم الصالح الذي تُعطّر النفس محبّتهُ وعملوها « في حضرته وغيبته » سلاماً واطمئناناً فضلاً عن الشعور الباطن انهُ لها موئلاً وملاذاً. واذا كنت انا اعرفهم به فانا احبهم لهُ

ما نسيت ولا انسى عدة مشاهد وعبارات شهدتها وسمعتها منذ ثمانٍ وخمسين سنة لان فيها صورة المعلم يعقوب صرّوف واعجابي بالمعلم يعقوب صروف

oo

اني لا انسى صورة بيت الشيخ امير ضومط في يوم جميل من ايام الصيف في برج صافيتا — السماء زرقاء لا اثر فيها لقزعٍ من سحاب ولا لاغبرار مّا حتى

فوق مياه البحر في الافق البعيد . حائط الدار من الحجر الازرق المختلف الاقدار والاشكال وفوقهُ من بعض جهاته ما يحميه من الشوك دون من يحاول الصعود عليه . باب البيت من الخشب السميك المتديان او الجوز — لا أعلم ايّهما كان — الاّ انّ الواحهُ مختلفة السمك حتى في اللوح الواحد واظنها لم يشذّبها منشار نشّار حاذق ولا ارالت خشونتها فارة نجّار ماهر . وعليه سكّرة ضخمة من الخشب تدخل في طاقة (ثقب) غير نافذة في صدع الحائط مسامير المشدودة بها الالواح الى الدارضين العليا والسفلى من خشب يسمونها خوابر . وعن يمين الباب الى جهة الجنوب مصطبة تعلو شيئاً قليلا عن الدار مسقوفة باغصان شجر الدار وجداراها الجنوبي والغربي قائمان على قوائم مما يعرف هناك باسم « قطّش » عليها عوارض من مثلها ومغطّى على شبه المربعات بين القوائم والعوارض بمتعرّف من اغصان البلوط والسنديان والريحان ومما حضّر خلاف ما ذكرنا

قال هذه الخيمة في صباح احدكما اظنّ الآن اتصوّر ولداً ينظر الى المعلم يعقوب يكلم المعلم الآخر واسمهُ المعلم ابرهيم وهو باسم الوجه ضاحك العينين . انّ صورة المعلم يعقوب أتخيلها الآن بكل وضوح بخلاف صورة معلمي الآخر وكان سبق حضورهُ الى برج صافيتا حضورَ المعلم يعقوب بأشهر وبقي بعدهُ في المدرسة بعلبك عدة اشهر ولكني لا اذكر لهُ الآن صورة قبل صورته هذه — اي التي مع صورة المعلم يعقوب — ولا بعدها، وفي الوقت نفسه هي صورة مضطربة في ذهني لا تستقرّ على حال

بعد هذا اليوم ببضعة ايام وفي مثله من الجمال ونقاوة الجوّ اتصوّر ولداً راجعاً من جهة ضهر بيت سمعان حيث كانت المدرسة وجيت بيت الشيخ اسير ضومط على مقربة منها وهو يشب على الطريق وثباً ولا ازال اشعر بهزّة سرور لسروره كلما تخيلتُ صورتهُ هذه . وسبب سروره كان انّ المعلم يعقوب علمهُ اسماء الحروف الهجائية بالامر نحي ولفظها عما يقابلها من الحروف الهجائية العربية . فاترك عمّاً ولا خالاً ولا خالة ولا ابن عمّ او خال بل اترك رفقاً من اترابه رآهُ ذلك اليوم الاّ واخبرهُ بذلك

مرّت ايام عطلة المدرسة الكلية الصيفية ورجع المعلم يعقوب في آخرها ليتمّ سنتهُ الاخيرة فيها وبقي التلميذ المتوهم في نفسه انهُ تلميذهُ يعلم به المرّة بعد المرّة ويقوم في الصباح باكراً يقصّ حلمهُ على امه ثم على كل واحد من اهل الدار وعلى غيرهم من الجيران حتى كثيراً ما اضجر امهُ فاضطرّ ان يسكت خيفةً من ضرب مكنستها —

انها كانت تضربهُ احياناً بالمكنسة لفظاً من غيظها او غضبها على تربيته وفي الوقت نفسه لا تؤذيه وقد لا توجعهُ احياناً « وإنْ اوهمتهُ انها توهمت ذلك » ولم تكن تحفل بتطيير المتطيرين بالضرب بالمكنسة — سمعت مرَّةً جارتنا امرأة موسى برهوم تقول لها: أما هو حرام عليك تضربيه بالمكنسة — فجابتها امي: « يا ريتي اخاف بآخرة عمي اذا ضربتهُ بغير المكنسة اذيه او على الأقل وجّعه: ومالي قلب اسمعه يبكي وهوّي الله يرضى عليه اذا حسّ على شيء ما يرضيني ما يعمله »

السلام عليكم يا استاذي العزيز ورحمك الله فانك انت الذي تثير اشجاني «وما احلى اشجانا هذه» بتذكيري ما اذكرهُ الآن من محبة الامّ الفاضلة واشفاقها ولولاك لكانت هذه التذكارات امّحت من خيالي ولكنها تجددت باتفاقها حول صورتك الخالدة التي كانت في ذهني والتي سيخلّدها تدوينها في مقتطفك المحبوب الخالد الى ما شاء الله

بعد سنة من هذه التذكارات التي مرَّت سمحت ام جبر لابنها وحيدها ان يفارقها الى مدرسة عبيه الاميركانية رغم انكار كل نساء برج حمّاد عليها ان تسمح لهُ يتغرَّب عنها الى قرية تبعد ثلاثة ايام عن قريتها وارجح ان اكثر ما دعاها الى سماحها لابنها بالذهاب الى مدرسة عبيه — التي كانت في ذلك الزمان ابعد من ابعد البلدان النائية التي يتغرَّب اليها ابناء تلك القرية اليوم — هو اعجابها بالمعلم يعقوب وتهذيبه

هناك بدأت اسمع عن معلمي واعرف عنهُ ما لم اكن عرفتهُ من قبل فزادني ما عرفتهُ محبةً واحتراماً فوق ما كان لهُ قبلاً مراراً. وآخر الامر وصلت الى ما كنت بدأت احلم بهِ واتشوَّف اليهِ في السنة الثانية من اقامتي في مدرسة عبيه الاميركانية اي الانتقال منها الى المدرسة الكلية في بيروت المدرسة التي اخذ منها معلمي علمهُ وكان قد انطبع في ذهني انْ لا معلم فوقهُ « ولم يغيّر هذا الخضوع بعد »

في سنة ١٨٧٢ في شهر اكتوبر تمت لي امنيتي بانتقالي الى الكلية السورية الانجيلية في بيروت بعناية المرحوم الدكتور صموئيل جسب برجل الفضل والنبل وكرم الاخلاق نفساً وارومةً وبعناية زوجتهِ الفاضلة رحمها الله رحمةً واسعة فانها كانت في فضلها وطيب عنصرها خليقة بالمرحوم زوجها واكثر منهُ عناية واهتماماً في ارتقالي الى الكلية

وفي سنة ١٨٧٣ تحققت لي احلامي الذهبية في الحادية عشرة فاني رأيت فيها المعلم

يعتوب استاذاً في الكلية الاميركانية ومعلمي فعلاً لا توهماً حلواً كان اولاً أحلوكة صيانية يُتَفكَّهُ بها ولاسيما بعد ان مرَّت السنون عليها

بقيت ثلاث سنوات تلميذاً لاستاذي ومعلمي في الكلية لا اشكو من شيء الا انهُ كان كاتما هو يغيرني بأن تلامذة العلوم المتقدمة كانوا — اخذاً بظاهر كثرة ترددهم على غرفته ورفع الكلفة في معاشرته ومرافقته إنْ في داخل صحن المدرسة او خارجاً عنهُ — اكثر قرباً اليه مني . ولكني لما صرت منتهياً اني في صف السنة الرابعة فهمت ما لم اكن افهمهُ وانا ابن السنة الثانية لاني وجدتُ نفسي حينئذٍ في الحالة التي كان عليها معهُ ابناء ذلك الصف الذين مروا عليه قبلي

تركت المدرسة سنة ١٨٧٦ ولكني بقيت تلميذاً لهُ لم تفارقني عنايتهُ فارسل اليَّ الى برج حاتيا اول عدد ظهر من المقتطف فانتقلتُ من التلمذة بواسطة المدرسة الى التلمذة بواسطة المقتطف وما زلت تلميذاً لهُ فيه الى شهر يوليو الماضي سنة ١٩٢٧ وهنا اقول : إني ما قرأت لهُ نقداً ولا جواباً عن سؤالٍ من كل السؤالات المختلفة في كل ماكان يخطر على بال سائل من مختلف الاقطار العربية وعلى اختلاف درجة علمهم وادبهم في معظم الخمسين سنة المارَّة الاَّ رأيت نفسي تبعاً لهُ لا اقول الاَّ ما قال في كل ماكنت درستهُ درساً خاصًّا واستفيد من علمه كما يستفيد التلميذ في كل مسألةٍ كانت خارجةً عن دائرة بحثي : وانْ بالنظر الى تفاصيلها : كاكثر مسائل العلوم الطبيعية بل في نفس مسائل اللغة — المسائل التي كنت وجَّهت اليها معظم اوقاتي مؤخراً — وفي كل ما يترك للعقل مدًى ليجولان فيها وابداء رأيهِ من غير ما ضرورةٍ للتقيد بالمنقول عن بصريين او كوفيين مثلاً ، كانت احكامهُ ببداهة فطرية كاحكام اكبر اليابانيين او الفيلولوجيين المعاصرين

لا يزال عندي ذخيرة من هذا الاستاذ العزيز منذ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ اتعوَّذ بها كلَّما دجا ليل مظلمة او تباعد عن قلبي مؤمل — هذه التعويذة هي كتاب من المرحوم — حُفظ بعناية لم اتمنَّ لها — يملأ صفحتين ونصف صفحة بخطهِ الدقيق الواضح «كان» كاخلاقهِ بحيث لا يشقُّ على بصر ولا تنبو عنهُ عين . احبّ ان انقل من هذا الكتاب او التعويذة ما يدلّ على « معلّميَّة » هذا المعلم وبعد نظره اولاً . وعلى حبهِ لتلامذته سواء كانوا في المدرسة الصغرى ام كانوا في مدرسة المجتمع الكبرى ثانياً . وعلى انهُ يعرف الفضل ويعترف بهِ لذويهِ ومستحقيهِ دائماً قال رحمهُ الله :

« ولكنَّ مصيبتنا كبرى وخُسرتنا اوسع من ان يُلمَّ بها واحد او اثنان وحسبك دليلاً ان الصين والهند وكل بلدان المشرق تئنُّ الآن من وطأة الغربيين ولا مناص لها او ينقلب الدهر فينخر ارومتهم سوس الادعاء والجرفة ويصفو للشارقة فيرتعون في رياض العلم والتجارة وهذا ما نحن ساعون فيه جهدنا وباذلون دونهُ النفس والنفيس وإننا وان لم تنظر باعيننا تملُّص المشرق من عبودية المغرب الا انا نراهُ بعين الايمان عن بعد ومحيِّيه — وقال — « وكان فيه ولا يزال درس مهمّ لي ولغيري ايضاً » — وابو . . . ليس من الاغبياء ولا اظنهُ يعنيك سؤالك اذا وقع عليه في حينه . وإن فعل . فالعزّ عند رسوم الإنق الذُّلل

« وفي الارض منأى للكريم عن الاذى وفيها لمن خاف القلى متحوَّلُ

وما انت اوّل من اتبع نهاهُ وعصى هواهُ فاكثر الآن من الدنانير فهي تسهل كل امرٍ عسير » . وقال ايضاً يوصيني باحد تلاميذه — « ارأيت شابًّا اسمهُ . . . هاجر حديثاً الى القطر المصري وهل تعرف شيئاً من امره ؟ اذا رأيتهُ وقدرت ان تساعدهُ بيسير من النقود اذا احتاج فافعلهُ معهُ تفعلهُ معي وانا اوفيك اذا عجز » وقال في ختام الكتاب : اهدِ سلامنا واحترامنا لكل الاصحاب والمعارف ولاسيما لصاحب المحروسة وصاحبي الاهرام الفاضلين . قد ساءنا جدًّا ما جرى للاهرام ولكن :

لولا اضطرام النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب نشر العود

فانَّ صاحبي الاهرام العظيمين لو قدرهما السوريون قدرهما لصاغوا لهما تيجاناً من الذهب . هذا ولك مني الف سلام اخوك يعقوب

وانا اقول وافتخر بقولي انهُ معلمي كان ولا يزال وهذا الكتاب يذكّرني بعديد من الكتب التي كان يرسلها اليَّ الى طرابلس فحرَّكتني الى المطالعة وشجَّعتني على الكتابة . بل هي نبَّهتني الى ما كنت غفلتُ عنهُ من اهمية لغة اجنبية لزيادة معارفي : وكنت قد اضطررت هذه الكرة جانباً ورميت بعبرتي القليلة باللغة الانكليزية عرض الحائط . ولكني لما انتقلت من مدرسة حمص الاميركانية الى مدرسة طرابلس في اواخر دمّوز (شباط) سنة ١٨٨٧ وجدت انَّ لا غنىً لي في توسيع معارفي عن درس هذه اللغة اذ انهُ لا استطيع فهم لغة العلم والفلسفة المودعة في مؤلفاتها لا لاخطب ولا لاكتب فيها : وكان المتبَّه لي الى هذه الحقيقة المقتطف وبانهُ

كنت في طرابلس اراجع المقتطف فلا ادع واردةً ولا شاردةً تفوتني فيه وانهم

درس كل ما يُكتَب فيه . ولكني وجدت انَّ منزلتي في عيون اهل الادب والفضل من وجهاء الطرابلسيين الكرام « ووجهاء طرابلس هم ادباؤها وهم علماؤها ايضاً » تقتضي أن تزيد معرفتي عمَّا تحتويه مقالات المقتطف ولا يتمُّ لي تحقيق ذلك الاَّ ان ازيد معارفي الضعيفة جدًّا في اللغة الانكليزية فاقبلت على ذلك بكل ما فيَّ من نشاط ورغبة سنة كاملة — اخبط في تلك اللغة لنفسي بنفسي خبط عشواء وافهم معاني الفاظها بعيني لا باذني وسمعي — قبل ان صرت افهم ما في تلك المؤلفات من العلم والحكمة التي كان قد بدا يروج سوقها حينئذٍ وكان المقتطف اول من بدا يروِّجه في مجلة علمية في معظم البلدان العربية ولاسيما سورية

اذكر اني بعد ذلك بمدَّة كتبت للمرحوم استاذي مقالةً في تفسير الاحلام فجاءني كتابه يقول تنشيطاً لي — (وحقًّا كان الكتاب اعظم منشط لي) — ما اخجل من دعواي اذا ذكرت معناه — وكافأني على تلك المقالة بان قدَّمها الى المجمع العلمي العربي الاول في بيروت وقُبلتُ فيه لاجلها عضواً مراسلاً وقد فُقدت هذه المقالة وأسفاه عليها وشُغلت عن اعادة كتابتها الى ان لم اعد استطيع ذلك

وقد كتبت مقالة اخرى موضوعها التعب وسوء الاخلاق ففقدت ايضاً وكان نصيبها من مديحه نصيب مقالة الاحلام . اما تأثير الكتابين فيَّ فاترك تقدير ذلك لمن يطلع على مقالتي هذه ومهما قدَّره مقدِّر فانا ما نسيت ولا انسى حسن اثرهما. ما اعظم تأثير المعلم الصالح في نفوس تلاميذه ! وما اعظم ما يستفيدونهُ من قدوته ولعلهُ اضعاف ما يستفيدونهُ من علمه

انا لم اقصد بمقالتي هذه — مادح نفسه بهديك البلام — انّا انا اصدِّق بها على ما كتبهُ الافاضل في المقتطف ومصادق عليه بما كتبتهُ عن تذكاراتي في صوتي وشبابي وايام كهولتي ومدة تسع سنين ايضاً بعد الستين من عمري

مالي وللنصح لقومي باختيار المعلم الصالح ولاسيما في المدارس الابتدائية اولاً ثم المعلم الصالح الاديب في المدارس العالية ثم المعلم الصالح العالم في الجمعيات وما يقاربها من الكليات التي تعدُّ ذوي المواهب للاختصاص بما ينفعوا ويُسَرّوا به

يكفيني اني وفيت ديناً عليَّ بشكري المرحوم الدائن وباعترافي بفضله ودينه عليَّ مما لم استطع وفاءه في حياته. فليرحمك الله يا استاذي العزيز وليرحم كل السنين امثالك من الذين كانوا قبلك وسيكونون من بعدك آمين ثم آمين

جبر ضومط